

في نور محمد فاطمة الزهراء

تكتنه [349] الأسرار، بصفائها الروحي تحسّ المجهول، وها هي ذي، تعفّ عن المبادل، وتخلد إلى جلال الهدوء، فالهدوء يسلم إلى الصمت، والصمت يؤدّي إلى حسن الإصغاء، وحسن الإصغاء يمكن في التلقّي، والتلقّي يفضي إلى الاستيعاب، والاستيعاب يفتح الآفاق للتأمّل. فإذا هي صمتت أصغت، وإذا هي أصغت وعت، وإذا هي وعت أقبلت على كلّ ما يلقيه سمعها وبصرها وبالها، تتبيّن نه تحت وهج التفكير، وإنّ نظراتها عندئذ لتبدو كأنّها تشرد، وإنّ جبينها ليظهر كأنّها يتعقّد، وإنّ ذهنها ليلوح كأنّها يسرح مترجلاً فيما وراء المرئي المنظور. * * * ولماذا لا تألف الهدوء؟ لِمَ لا تلزمه وتسير وإيّاها في طريق؟ لم لا تعيشه وهو الحياة التي يحياها كلّ أولئك الذين عاشت في دنياها الصغيرة؟ إنّها لتعلم كيف اختار أبوها الهدوء رفيقاً له، لا يكادان يفترقان، منذ تفتّحت عيناها على ما حولها لم يكن يغيب عنها انفراده بنفسه الليالي الطويلة في غار حراء، ولا كانت تغفل عن اختلائه أحياناً بحجرته بعد أن يؤوب من غيابه، أو يفرغ من شواغل يوم مشحون، ولا كان يعوزها أن تدرك إلى أيّ مدى كانت أمّها تحرص الحرص كلّّه على أن توفّر لزوجها الأسباب التي تهين له تلك الخلوات. لأمر ما كان محمد يقضي بالجل معظّم لياليه، لأمر ما كان ينقطع عن دنيا الناس، بالغار أو بالدار، لأمر ما كان يؤثر العزلة. أبحدسها شارفت فاطمة سرّ هذا الاعتكاف؟ أم توسّمته بحسّها الشفيف؟ أم طالعتها في محيّا أبيها صفحات من المعاني البليغة؟